

تهجير الموريسكيون من الأندلس إلى المغرب الأقصى من القرن 9/هـ15م إلى القرن 11/هـ17م.

أ. مفتاح علي عبد العزيز الزائدي، محاضر بقسم التاريخ، كلية الآداب الخمس، جامعة المرقب، ليبيا

Email: maalzaidi@elmergib.edu.ly

أ. ليلى إبراهيم نافع إبراهيم، محاضر بقسم التاريخ، كلية الآداب الخمس، جامعة المرقب، ليبيا

Email: labinnafe@elmergib.edu.ly

المستخلص:

ظهر على السطح المجتمعي في المغرب الأقصى الموريسكيون، وهم فئة مجتمعية من سكان الأندلس استقرت في المغرب الأقصى؛ لأسباب عدة، من خلال هجرات متتالية في مراحل اختلفت فيها الأسباب ما بين الهجرة الطوعية والتهجير القسري، من هنا يتناول هذا البحث موضوع الموريسكيون بدءًا بالتعريف بهم، وبهجرتهم نحو العدة المغربية (المغرب الأقصى) البعد المكاني لهم، والعمل على استعراض مجموعة من الأسباب التي كانت دافعة لهم للهجرة، من بينها السياسي، وهو ما نتج عن أوضاع سياسية صعبة عقب سقوط غرناطة في يد النصارى، إلى جانب أسباب اقتصادية، ودينية، وثقافية وغيرها، سنطرحها بالتفصيل من خلال هذا البحث.

كما تطرقت لمرحل الهجرة الموريسكية بدءًا من مرحلة سقوط غرناطة، مرورًا بمرحلة شارل الخامس، وفيليب الثاني، ومرحلة فيليب الثالث التي معها بدأت مرحلة التهجير القسري الممنهج، كما أن هذا البحث سيتناول نتائج التهجير من خلال أثرها على المغرب الأقصى، كالتأثير الاجتماعي كالامتزاج في ثقافة اللباس والطبخ، ومراسم الاحتفال بالأعياد الدينية والاجتماعية، كما أن التأثير كان من ضمن ملامحه على الجانب الثقافي للغة وما أُدخل من كلمات (مصطلحات) وانتشرت في المجتمع ولاقت رواجًا، وقد كان للجانب العلمي المعرفي، والاقتصادي، والمعماري، والعسكري تأثيراته الواضحة بعد عملية الهجرة والاستقرار في المغرب الأقصى، كل هذا خلق نمطاً سكانياً جديداً، بثقافات امتزجت بين المحلي والوافد ظلت ملامحها قائمة فيما بعد.

الكلمات المفتاحية: التهجير - الموريسكيون - المدجنون - النصارى - القدامى - المغرب الأقصى - محاكم التفتيش.

Abstract:

The Morocco's appeared on the societal surface in the Far Maghreb, and they are a societal group from the inhabitants of Andalusia that settled in the Far Morocco for several reasons, through successive migrations in stages in which the reasons varied between voluntary migration and forced displacement. From here, this research deals with the subject of the Moriscos, starting with introducing them, and their migration towards... The Moroccan enemy (Al-Aqsa Morocco) their spatial dimension, and work to review a group of reasons that motivated them to emigrate, including the political, which resulted from difficult political

conditions following the fall of Granada into the hands of the Christians, in addition to economic and religious reasons. Cultural and others, we will present them in detail through this research.

We will also discuss the stages of Morocco migration during the century starting with the stage of the fall of Granada, through the stage of Charles V, Philip II, and the stage of Philip III, with which the stage of systematic forced displacement began. This research will also address the results of displacement through... Its impact on the Far Maghreb, such as the social impact, such as the mixing in the culture of dress and cooking, and the ceremonies of celebrating religious and social holidays. Also, the impact was among its features on the cultural side, the language and the words (terminology) that were introduced and spread in society and gained popularity. It was for the scientific, cognitive, economic, architectural and military side. Its clear effects after the migration and settlement process in Al-Aqsa Morocco, All of this created a new population pattern that mixed between the Moriscos as immigrants to the region and the local population.

The diverse aspects of living - political, economic, cultural and social - were transformed and mixed with new cultures whose features remained present later.

Keywords: *Displacement – Moriscos - Mudjars - Ancient Christians - Al-Aqsa Morocco – Inquisition..*

المقدمة:

شهد تاريخ المغرب الإسلامي العديد من الأحداث التاريخية المهمة التي كان لها الأثر الواضح في التأثير على الجوانب الحياتية في المغرب الإسلامي بأجزائه الثلاثة المترامية الأطراف، فمع زحف المسلمون غرباً للشمال الإفريقي في حركة توسعية للدولة الإسلامية التي أسسها الرسول ﷺ، وكان زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بداية جديدة لتشكل تاريخ جديد للمنطقة، من حيث الفكر الديني والثقافي والمجتمعي، ومن هناك كان للمغرب الإسلامي الحضور القوي في تغييرات حصلت في محيطه ومنها الفتح الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) وما نتج عنه من تواجد عربي إسلامي فيه لعدة قرون، تشكلت فيه حضارة إسلامية عمرانية وفكرية وثقافية، ناهيك عن تواجد لنمط سكاني جديد يمكن القول بأنه خليط سكاني ساهم في خلق مجتمع أندلسي فيه، وفي نهاية القرن العاشر الهجري/الخامس عشر الميلادي سقطت آخر معاقل المسلمين في الأندلس، كان من ضمن نتائج السقوط الهجرة الأندلسية نحو المغرب الإسلامي، ونقتصر هنا على تناول الهجرة الموريسكية للمغرب الأقصى، حاملين معهم موروث ثقافي المتمثل في العادات والتقاليد

ونمط المعيشة، إلى جانب أنشطتهم الاقتصادية وغيرها، إلى جانب مدى التمازج الذي ظهر على السطح المجتمعي بينهم وبين السكان الأصليين في المغرب الأقصى.

تستوقفنا في البداية بعض من المصطلحات التي تتطلب توضيحها، والتطرق لها من بين تلك المصطلحات الآتي: **(المدجنون)** من دجن (د.ج.ن) أصلها كلمة عربية بمعنى استمر وهو مصطلح مشتق من دَجَنَ أي أقام خاضعاً، غير أنه تحرف على ألسنة الإسبان في بعض الأحيان (دجل) و(دجر) لكي يصبح الموصوف به يسمى (مدجلاً) أو (مدجراً) فليل (موديجار)⁽¹⁾، والمدجنون هم المسلمون الذين بقوا في الأندلس وعاشوا تحت حماية الممالك المسيحية، ونظراً للأذى والاضطهاد الذي تعرضوا له، حتى وصل بهم الحد إلى دفع ضرائب متنوعة ومتعددة مقابل بقائهم في أعمالهم وأماكن سكنهم⁽²⁾، إذاً فالمدجنون هم ممن ظلوا تحت حكم النصارى الإسبان مع احتفاظهم بهويتهم الإسلامية، ويكمن السبب في إبقائهم من قبل الحكومة القشتالية، لوجود طبقة مجتمعية آنذاك، فالسلطة بعد أن أفرغت الأراضي من أصحابها، عملت على استقدام نصارى قدامى من سلالات آرية وكاثوليكية⁽³⁾، للاستقرار في هذه الأراضي لكن هؤلاء لم يكن باستطاعتهم ممارسة الأعمال الشاقة كالزراعة والصناعة؛ ربما انطلاقاً من مبدأ الترفع الطبقي المجتمعي، وهذا الأمر نتج عنه تردي الوضع الاقتصادي في المنطقة، ولذلك عمل النصارى الإسبان على إبقاء المدجنون كطبقة عمالية في ممالكهم تكون عاملاً مساعداً للاستقرار السكاني من الجانب الاقتصادي، فالمدجنون هم من حملوا صفة المسلمين الرسمية في المجتمع الإسباني، وظل هذا المصطلح مستخدماً للتعريف بهم إلى ما بعد سقوط غرناطة (897هـ/1492م)، حيث ظهر مصطلح الموريسكيين، وبالتالي المدجنون حالة سابقة يصعب فهم الموريسكيين بدون الإشارة إليهم⁽⁴⁾.

أما مصطلح **(الموريسكيون أو الموريسكوس)** هو مصطلح له جذوره التاريخية القديمة، يرجع إلى اللغة الأمازيغية من كلمة (أمور)، ويعني البلد أو الدولة أو القسمة، وبعد سيطرة الرومان على المغرب سنة (146ق.م)، ودخول اللغة اللاتينية تم استخدام كلمة (أمور) بمعنى مغاير حيث أصبحت تعني أسمر البشرة

(1) دنون: عبد الواحد طه، أهمية الكتب الفقهية في دراسة تاريخ الأندلس، أعمال الندوة الدولية حول حضارة الأندلس، الرباط، 1992م، ص183.

(2) المرجع نفسه، ص251.

(3) عبد الكريم: جمال، الموريسكيون تاريخهم وآدابهم، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، (د.ت)، ص6-9.

(4) أهمية الكتب الفقهية في دراسة تاريخ الأندلس. دنون، مرجع سابق، ص138.

أو سكان المغرب⁽¹⁾، إشارة إلى سكان المغرب الأوسط وبلاد شنقيط⁽²⁾، التي سمي سكانها (مايروس) ومن تم إلى كلمة (مورس) في اللغة الإسبانية، وهي تصغير للموريسكوس، ليأخذ المصطلح بُعداً عرقياً دينياً فيما بعد، حيث أطلق على جميع المسلمين الذين كانوا يحكمون الأندلس ثم غلبوا على أمرهم فصغر اسمهم للتقليل من شأنهم⁽³⁾، كما أنه بعد سنة (906هـ/ 1500م) استخدم هذا المصطلح كاسم أطلق على المسلمين الذين أجبروا على اعتناق المسيحية، فعرفوا بالموريسكيين أي النصارى الجدد، تميزاً لهم عن النصارى القدامى، لكن الجدير بالذكر أن هذا المصطلح تحول من صفة تحمل دلالات دينية إلى اسم شامل يدل على حضارة وثقافة مختلفة في الدوائر الرسمية، وبين الأوساط الشعبية لتحديد الاختلاف والفروق بين النصارى القدامى والجدد (الموريسكيين)⁽⁴⁾، وقد شكل (الكوازيل) حلقة وصل بين الموريسكيين والنصارى القدامى، وهي شخصية مهمة تُورث أباً عن جد، من قبل العديد من العائلات، حيث كانت توكل لهم بمرسوم ملكي تقديراً لكل من قدم مساهمات فاعلة في حرب الملوك الكاثوليك، وقد تقلدها بعض المسلمين مقابل إعلان ولائهم للتاج الإسباني⁽⁵⁾.

إذاً يمكن القول أن الموريسكيين هم الأندلسيون الذين هاجروا من الأندلس إلى المغرب الإسلامي بعد سقوط غرناطة سنة (897هـ/ 1492م)، هروباً دينياً من جهة وخوفاً من الملاحقة بالقتل أو التعميد والتنصير والحرق، وغيرها من وسائل التعذيب التي مارستها محاكم التفتيش الكاثوليكية، كما أن فئة اليهود قد تم إدراجها تحت هذا المصطلح في بعض الأحيان، كما وجد مصطلح (المارانوس) الذي أطلق على اليهود المنتصرين من قبل الإسبان تميزاً لهم عن بقية اليهود⁽⁶⁾، خلاصة القول أن كلمة الموريسكيين كمصطلح بدلالاته تم إطلاقه على المسلمين الذين تم تعميدهم قسراً وعتوةً ليصبحوا مسيحين علناً مسلمين سراً.

الوضع السياسي للمغرب الأقصى إبان الهجرة الأندلسية:

واجهت الجالية الأندلسية التي تدفقت في هجرات نحو المغرب الأقصى حدثين هامين، وهما الاحتلال الإسباني، وكذلك الصراع الوطني السعدي، وقد طبع كلاهما بالطابع السياسي، فالاحتلال الإسباني تمثل في تمكن البرتغاليون

(1) السايح: الحسن، الحضارة المغربية، عكاظ، الرباط، 2000م، ص 69.

(2) إيبارتا: ميكيل دي، الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال عبد الرحمن، القاهرة، 2005م، ص 42.

(3) الكامون: مولاي أحمد، وآخرون، التأثير الموريسكي في المغرب، المغرب، 2010م، ص 34.

(4) الموريسكيون تاريخهم وأدابهم، جمال. مرجع سابق، ص 9.

(5) قشتيلو: محمد، حياة الموريسكيون الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، منتديات أهل الحديث، تطوان، 2001م، ص 15.

(6) المسيري: عبدالوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، 1999م، ج 2، الباب الثاني، ص 4575.

من الإستيلاء على موانئ المغرب الأقصى مثل سبتة وطنجة، وعملوا على بناء الحصون والقلاع، وفرضوا هيمنتهم على المنطقة مما جعل بعض من زعماء القبائل والأهالي يتسارعون لعقد تحالفات معهم، رغبةً في الحفاظ على مصالحهم الذاتية التي لا تقوم إلا بالخضوع لهم⁽¹⁾، في المقابل كان المغرب تحت حكم سلطتين وهما: الدولة الوطاسية في فاس، تحت حكم السلطان محمد الشيخ الوطاسي الذي استقبل المهاجرين واستخدمهم في بداية الأمر لمواجهة الإيبيريين⁽²⁾، والإسبان في الشمال، حيث قاد حملة الجهاد الأخوين أحمد وعلي العطار الأندلسي، إلا أن هذا التحالف لم يستمر طويلاً بسبب تعاون الوطاسيون مع الإسبان وعجزهم عن حماية الأندلسيين، الأمر الذي دفع الأندلسيون للجوء إلى أبي عبدالله محمد الشيخ السعدي لنصرتهم، لتبرز بهذا قيادة السعديين الذين كانوا يُحكَمون سيطرتهم على مراكش منذ عام (940هـ / 1533م)، فقد حمل السعديين بقيادة أبو عبدالله محمد الشيخ السعدي راية الجهاد ودعت إلى الوحدة المغربية، ونجحت في أن تكسب ولاء أهل المغرب ومهاجري الأندلس وأن تخوض حرباً جهادية ضد النصارى الإسبان والبرتغاليين، وأن تسقط دولة الوطاسيين في فاس عام (966هـ / 1553م)، وفي تلك الأثناء ظهر أبو حسنون الوطاسي الذي فر من السعديين وأبرم تحالف مع العثمانيين، تمكن من خلاله من هزيمة السعديين، لكن الشيخ عبدالله السعدي أعاد نفوذه من جديد، وأسقط الدولة الوطاسية نهائياً في نفس العام، ليصبح المغرب الأقصى بالكامل تحت سيطرة الدولة السعدية⁽³⁾،

أسباب هجرة الموريسكيين:

1) الأسباب السياسية: لقد شهدت الأندلس العديد من الأحداث ذات الطابع السياسي، ولعل أهمها سقوط غرناطة بيد الملكيين الكاثوليكين (فرناندو وإيزابيلا)؛ نتيجة لاستغلال الصراعات الداخلية بين حكام بني الأحمر، والذي تمثل في عدة مراحل أهمها انقلاب عبد الله الصغير على حكم أبيه أبو الحسن وسيطرته على غرناطة سنة (897هـ / 1483م)⁽⁴⁾، لينتهي الأمر بحصارها وسقوطها بيد النصارى⁽⁵⁾، لتبدأ مأساة

(1) الغنيمي: عبد الفتاح، موسوعة المغرب العربي، مكتبة مدبولي، 1994م، ص53.

(2) خطاب: محمد شيت، قادة فتح بلاد المغرب، دار الفكر، ط7، 1984م، ج2، ص202.

(3) خطاب: مرجع سابق، ج2، ص204.

(4) مؤلف مجهول، أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1991م، ص83-84.

(5) بقي حكم عبدالله الصغير لغرناطة مقابل اتفاقية تضمنت دفع الجزية وإعلان التبعية لمملكة قشتالة، ومع تجدد الصراع الداخلي بين الأمير عبد الله وعمه الزغل، فاستغل الملكيين الكاثوليكين ذلك وعملا على اسقاط المدن واحدة تلو الأخرى، وحوصرت غرناطة لمدة سبعة أشهر تقريباً، حصاراً قاسياً، يذكر ذلك في أخبار العصر "... مازال حال البلد يضعف ويقل من الطعام والرجال...، وأدرك الجوع كثيراً من الناس..، فاجتمع أعيان الناس...، وبعثوا لملك الروم من يتكلم بأمرهم... فأنعى لهم بجميع ما طلبوا منه وما شرطوا عليه"، قدم لنا هذا النص صورة واضحة عن الوضع الذي آل إليه حال المجتمع جراء هذا الحصار الذي فرض عليهم، لينتهي الأمر بسقوط غرناطة عام (897هـ / 1492م)، للمزيد: دنون، المرجع السابق، ص192 / مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص112-114.

أخرى عاشها المسلمون في الأندلس تمثلت في الحفاظ على هويتهم الدينية في ظروف صعبة كانت تعمل لجعل الأندلس نصرانية، وهنا كانت مبادرة الهجرة لدى السكان الملاذ الوحيد لهم؛ للهروب بدينهم وهويتهم الثقافية، في حرب تحولت من طابع سياسي إلى طابع ديني.

(2) الأسباب الاقتصادية: يعد الوضع الاقتصادي عاملاً مهماً في استقرار الدول والمجتمعات أو اضطرابها، فالأندلس أثناء الحكم الإسباني شهد تدهوراً في أوضاعه الاقتصادية، يذكر صاحب أخبار العصر⁽¹⁾ "... واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم"، لقد قام الإسبان بمصادرة أراضي المسلمين كما فرضت عليهم الضرائب المجحفة مقابل احتفاظهم بهويتهم الإسلامية، في مساومة لهم لترك دينهم وثقافتهم في عملية تصيرية ممنهجة، طبعت بطابع اقتصادي، وقد بلغت قيمة الضرائب حوالي 150.000 ألف دوكا ذهبية⁽²⁾، مقابل عدم تنفيذ المرسوم الذي أصدره (شارل الخامس) سنة (932هـ/1526م)، والذي يقضي بمنع اللغة العربية وارتداء الزي الإسلامي وممارسة العادات والتقاليد والتعاليم الإسلامية، إضافة للمبالغ المالية التي كانت تدفع للخزينة الملكية لتضمن لهم البقاء في مأمن عن محاكم التفتيش⁽³⁾ لفترات من الزمن⁽⁴⁾، كما أُجبرَ الموريسكيون على بيع أراضيهم للنصارى بأبخس الأثمان، ليقوموا النصارى ببيعها من جديد بأثمان باهظة أو بكرائها للموريسكيين أنفسهم، كل هذا خلق وضعاً اقتصادياً صعباً لا مجال فيه للموريسكيين للاحتجاج؛ لكونهم مهددين بمحاكم التفتيش، إضافة لارتفاع الأسعار ارتفاعاً كبيراً، لم يستطع حينها مسلمي الأندلس تحمل الغلاء، فكان العامل الاقتصادي سبباً من الأسباب للجوء للهجرة وترك وطنهم الأندلس⁽⁵⁾.

(3) الأسباب الدينية والثقافية: يعد الدين مظهراً من مظاهر الثقافة لأي مجتمع، وهو يحفظ له خصوصيته وهويته، من هنا كان لحكام الأندلس الجدد (النصارى) العمل على فرض سياسة التنصير من خلال

(1) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص118.

(2) الدوكا: هي عملة تجارية ذهبية أو فضية عرفت بالدينار الإفرتي أو البندقي، تزن حوالي 3.4909 غرام، كانت تستعمل في أوروبا في أواخر العصور الوسطى، وقد اعتمدها الكثير من الدول الإسلامية كالدولة المملوكية والسعدية لجودتها، للمزيد: فاروق عثمان إباضة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن 16، دار المعارف، القاهرة، 1986م.

(3) محاكم التفتيش: أنشأت أول مرة في إيطاليا سنة (629هـ/1231م)، لتنتقل بعدها إلى فرنسا ثم إسبانيا، والغاية من تأسيسها هي محاربة الهرطقة، وتأمين وحدة الدين المسيحي عند الجميع ومصادرة الأموال، كانت مقراتها في الأديرة والكنائس، وكان لها جيش خاص بها، للمزيد: الحجى، عبد الرحمن علي، محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، 1987م.

(4) قشتيلوا، مرجع سابق، ص11. الكامون، مرجع سابق، ص65-66.

(5) قشتيلوا، مرجع سابق، ص16. عباس: رضا هادي وآخرون، محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس، دار الحوراء، بغداد، 2014م،

الإجراءات التي اتخذتها الكنيسة، حتى وصل بهم لفرض التصير كدين بديل على سكان الأندلس المسلمين بواقع القوة وفرض الهيمنة، تذكر في هذا السياق إحدى المصادر (1) "... أن قطر الأندلس طرق أهله خطب لم يجد في سالف الدهر، وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقضي في الظاهر الكفر"، هكذا اعتنق عدد من المسلمون المسيحية وخاصةً من طبقة الوزراء والأمراء مقابل المُنح والهبات التي شملت أحياناً منطقة بأسرها، كما هو الحال لأهل وادي الكريم والبشّرات، حيث أصدر الملكان مرسومين في سنة (906هـ/1500م) يبرئ سائر أهالي هذه النواحي ممن تنصروا من جميع الضرائب والتعهدات المفروضة عليهم، ورفعها عن سائر أملاكهم مدة ستة سنوات(2).

يجدر القول أن هذه السياسة لم تؤتِ هدفها عند كل السكان المسلمين، ففرض التصير بكل السبل بما فيها الأدوات الاقتصادية من ضرائب وإتاوات وامتيازات جُوبه برفض من السكان، ممن احتفظوا بدينهم وهويتهم الإسلامية، الأمر الذي نتج عنه لجوء الحكام الإسبان إلى محاكم التفتيش، التي تقننت في استخدام كل أنواع التعذيب والتنكيل بالمسلمين؛ لإجبارهم على اعتناق المسيحية تحقيقاً لهدفها، إلى جانب ذلك عمدت إلى تشويه الصورة الثقافية التي كانت قائمة آنذاك من خلال المعمار الإسلامي الديني المتمثل في المساجد وما تحمله من رمزية هامة في نفوس السكان، حيث عمدت على تحويل العديد من المساجد إلى كنائس وعملت على إحراق الكتب الدينية الإسلامية ومنع تداولها، كما أقدمت على تشكيل إرساليات ومدارس خاصة لتعليم أبناء الموريثيين الدين المسيحي، وقامت بتكليف المؤلفين لتأليف كتب تقوم على الطعن في الدين الإسلامي مثل كتاب (إزهاق القرآن) للراهب الفلورنسي ريكولدودي سنة(906هـ/1500م)، كذلك كتاب (نور الإيمان ضد القرآن) لخوان دي تين سنة(920هـ/1515م)(3)، وغيرها من الأعمال التي هدفت لغرس بدور المسيحية النصرانية في المجتمع، لاستقزاز المسلمين في عقيدتهم، ويتضح من خلال ما تم ذكره أن العوامل والدوافع كانت ذات صبغة ثقافية دينية، لإقدام الموريثيون إلى اتخاذ قرار الهجرة هدفاً لهم لحماية دينهم وموروثهم الثقافي، ولعل من أبرز العوامل الدينية للهجرة هي الفتوى التي أصدرها أحمد بن يحيى الونشريسي(4) ونصها "... إن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ... ويستثنى

(1) المقري: أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، القاهرة، 2008م، ج2، ص69-71.

(2) عنان: عبدالله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، القاهرة، ط3، 1966م، ص315-320. والكامون، مرجع سابق، ص70-71.

(3) عنان، مرجع سابق، ص317-320. والكامون، مرجع سابق، ص74-75.

(4) الونشريسي: أحمد، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، بيروت، 1981م، ج2، ص120-

فيها المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين لا يملكون حيلة ...، وأما المستطيع بأي وجه كان وبأي حيلة تمكنت فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام"، ثم أكدها بفتوى أخرى سنة (901هـ/1495م)، رداً على أحد مسلمي الأندلس يسأله البقاء بها لمساعدة إخوانه هناك في حل مشاكلهم لدى السلطات الإسبانية فكان جواب الونشريسي بالرفض معللاً ذلك بقوله: "... لأن مساكنة الكفار من غير أهل الذمة والصغار لا تجوز ولا تباح ساعة من نهار، لما تنتج من الأذناس والأوصار، والمفاسد الدينية والدنيوية طول الأعمار..."⁽¹⁾، يبدو أن مضمون الفتوى كان واضحاً لا يتحمل التأويل أو التفسير، لذا كان لها وقع في نفوس المسلمين مما جعل من الهجرة هدفاً لهم وزادت من وتيرتها، إلى جانب ذلك أصدرت القوانين من السلطة القائمة في الأندلس بتعلم اللغة القشتالية في ظرف زمني لا يتعدى ثلاث سنوات⁽²⁾، ولهذا الأمر غايته الظاهرة في طمس اللغة العربية وما تحمله من ثقافة مجتمعية هناك.

4) الأسباب الاجتماعية: عند الحديث عن الأسباب ذات الطابع الاجتماعي نلاحظ السياسة الممنهجة التي اتخذتها الكنيسة في إسبانيا لفرص واقع على السكان، فإلى جانب الأسباب الأخرى كان للإجراءات المفروضة على المورييسكيين المتمثلة في سنّ الكنيسة قوانين تمنع الزواج بين المسلمين والمسيحيين⁽³⁾، كما فرضت على المسلمين ارتداء ملابس تطابق الزي الإسباني ومنعت الخياطين من صنع ملابس توافق الشكل الإسلامي في المظهر، محاولة منهم لطمس الرمزية الإسلامية حتى في الملابس، كما فرضت على المسلمين وضع شارة زرقاء فوق قبعاتهم لتمييزهم عن الإسبان، ومنعتهم من استخدام الحمامات⁽⁴⁾. إلى جانب ذلك أصدرت الأحكام ضد كل من لا يتناول طعامه على مائدة ولا يجلس على كرسي وأن تتم احتفالات الزواج على الطريقة القشتالية، وترك أبواب بيوتهم مفتوحة يوم الجمعة والأعياد الإسلامية، كما أجبروهم على التخلي عن أسمائهم الإسلامية واتخاذ أسماء مسيحية مثل خوان والفونسوا وفرناندوا، وحرفت الأسماء العربية مثل أحمد إلى أوميت، ويوسف إلى خوسي⁽⁵⁾، وغيرها من القوانين الصارمة التي فرضت على المورييسكيين الذين رفض غالبيتهم سياسة الإدماج القسري وفضلوا الهجرة على البقاء.

(1) الونشريسي، مرجع سابق، ج2، ص132.

(2) الكامون، مرجع سابق، ص74-75.

(3) قشتيلوا، مرجع سابق، ص9-11.

(4) الكامون، مرجع سابق، ص82.

(5) رزوق: محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط3، 1988م، ص121.

مراحل الهجرة الموريسكية خلال القرن (9-11هـ/15-17م):

مرت الهجرة الموريسكية بمراحل عدة كان للوضع في الأندلس سبباً فيها، حيث تغيرت وتيرة السلطة الحاكمة من حيث تعاملها مع المسلمين فالمرحلة الأولى من الهجرة كانت في عهد الملكين الكاثوليكين (فرناندوا وإيزابيلا) سنة (897 - 930هـ / 1492-1524م)، وهي مرحلة سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس والتي قصد فيها المهاجرون المغرب الإسلامي وتميزت بانتهاج الإسبان لسياسة متابعة حركة الاسترداد وملاحقة الموريسكيين⁽¹⁾، أما المرحلة الثانية كانت مرحلة شارل الخامس وفيليب الثاني (930-1007هـ/1524-1598م)، وصدرت فيها القرارات التي تقتضي على المسلمين إما التنصّر أو العبودية، وأمام هذا الضغط بدأ الموريسكيون في الهجرة⁽²⁾، أما في عهد فيليب الثالث (1007-1017هـ/ 1598-1609م)، كانت المرحلة الثالثة للهجرة، والتي انتهت بإصدار قرار الطرد النهائي للموريسكيين سنة (1017هـ/1609م)، لعدة أسباب منها فشل الإسبان النصراري في جعل المسلمين الموريسكيين يتقبلون سياسة الإدماج القسري الممنهج، ومحاولات التنصير الفاشلة⁽³⁾، فقد أصدر فيليب الثالث مرسوماً يفرض على الموريسكيين الالتحاق بالمراكب البحرية، وأن يحملوا ما يستطيعون حمله قصد ترحيلهم، وفرضت على من يخالف الأمر أن يصبح من الرقيق وللسلطة الحق في امتلاكه أي يباع ويشترى، كما وضعت الحكومة شروطاً لمن أراد البقاء في الأندلس منها: - يجب أن يكون الموريسكي لم يسبق له المشاركة في أي نشاط ضد الحكومة، وأن يبرهن على نصرانيته بالتردد بانتظام على الكنيسة والمشاركة في الأعياد النصرانية، وأن يدفن موتاهم في أماكن دفن النصراري القدامى، وأن يأخذوا عادات وتقاليد النصراري القدامى ويبرهنوا على أنهم ساهموا معهم في قمع ثورة المسلمين بأنفسهم وأموالهم⁽⁴⁾، وأمام هذه الشروط وجد الموريسكيون أنفسهم أمام صعوبات جمه لجمع هذه الدلائل فكان نتيجة لذلك أكبر عملية طرد حدثت بين سنتي (1017-1020هـ / 1609-1611م).

مراكز الاستقرار في المغرب الأقصى:

توافد على المغرب الأقصى عدد كبير من الموريسكيون خاصةً بعد قرار الطرد الصادر سنة (1017هـ/1609م)، قدرت أعدادهم بحوالي 40,000 من أصل قرابة 300 ألف مهاجر مسلم حسب ما

(1) قشتيلوا، مرجع سابق، ص 11-15. رزوق، مرجع سابق، ص 52-55.

(2) رزوق، مرجع سابق، ص 81-82.

(3) رزوق، مرجع سابق، ص 120-121.

(4) قشتيلوا، مرجع سابق، ص 22-23.

أوردته بعض الدراسات الموريسكية⁽¹⁾، هذه الأرقام تعطينا صورة عن الأعداد الكبيرة التي هُجرت من الأندلس إلى مختلف البلاد الإسلامية، أما عن المغرب الأقصى فقد تركزت تلك الهجرات في المنطقة الشمالية لقربها من شبه الجزيرة الإيبيرية، فذكر خروج الطائفة الموريسكية واستقرارها في المدن المغربية "... وكذلك خرج طوائف منهم بتطاوين وسلا والجزائر، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً جراراً وكان منهم من الجهاد بالبحر"⁽²⁾، لقد تسلل الموريسكيون عبر المراكز الساحلية مثل طنجة وسبتة ومليلة ومنها تسربوا إلى الداخل⁽³⁾، وأول المدن التي استقروا بها هي تطوان التي خاضوا فيها جهاداً بحرياً ضد خصومهم الإسبان، ومن ذلك اكتسبوا صفة المجاهدون، وقد قام هؤلاء بإعادة بناء المدينة بعد حصولهم على موافقة السلطان محمد الشيخ الوطّاسي بفاس، كذلك أقاموا في شفشاون والرباط وفاس وبمصّب أبي الرقراق⁽⁴⁾، ولقد توزعت خريطة الانتشار بالمغرب الأقصى بشكل متفاوت حسب الوضع الجغرافي والاقتصادي للمدن والأرياف، وغلب على المهاجرين للمغرب الأقصى طابع الجهاد؛ ومرد ذلك هي الفترة الزمنية القريبة من عمليات الطرد والظلم التي تعرضوا لها؛ فجاؤوا يحملون راية الجهاد أملاً في استعادة وطنهم من جديد، وما شجعهم على ذلك هو القرب الجغرافي للسواحل المغربية التي كانت أجزاء منها تحت سيطرة البرتغال والإسبان، فكان أهلها في حالة تغير دائم، مما أسبغ عليهم صفة المجاهدين وهذا ما سنلاحظه عند حديثنا عن التأثيرات السياسية والعسكرية لاحقاً.

إن المنتبِع لمناطق الاستقرار التي قطنها الموريسكيين يتبادر إلى ذهنه سؤال مهم وهو ما موقف سكان أهل المغرب الأقصى اتجاه الموريسكيين؟ عند الحديث عن موقف أهل المغرب الأقصى اتجاه الموريسكيين يجب تناول الروايات التي جاءت في المؤلفات الإسبانية والعربية ومحاولة تحليلها ونقدها إن تطلب ذلك، فالمستشرق الإسباني (إيبالثا) أشار إلى عدم اندماج الموريسكيين مع أهل المغرب الأقصى بحجة عدم التوافق الحضاري وهمجية أهل المغرب فيقول⁽⁵⁾ "... من بين العوامل التي كانت تحوّل دون اندماج الموريسكوس في المجتمع المغربي هو التداخل بين العنصرين البدوي (أهل المغرب) والمدني (الموريسكيين)، فالمدن كانت تحيط بها أراضي فلاحية يسكنها المزارعون الذين يعيشون على النمط البدوي، مما حال دون اندماج

(1) المرجع نفسه، ص126-127. الكامون، مرجع سابق، ص88.

(2) الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج6، ص12.

(3) رزوق، مرجع سابق، ص129.

(4) الكامون، مرجع سابق، ص95.

(5) إيبالثا، مرجع سابق، ص260.

الموريكوس"، في المقابل يذكر قشتيلو⁽¹⁾ "... أن فلاحي مرسية الذين طردوا بأعداد كبيرة سنة (994هـ/1585م)، وقدموا إلى المغرب لم يكونوا يعرفوا عن حياة الحضر شيئا، وخلقوا أزمة للمزارعين المغاربة بسبب مضايقتهم لهم في فلاحتهم"، نلاحظ أن الفرق واضح في عرض المعلومات التي تتعلق بالموريكيين، فالمصادر الإسبانية ركزت وألحّت على فكرة التعالي والشعور بالنفوق عند الموريكيين اتجاه المغاربة، وإصرارها على إظهار أهل المغرب بمظهر البدو المتخلفين، وكأنهم ليسوا أصحاب حضارة، متناسين أن حضارة الأندلس أسسها المسلمون الذين من بينهم أهل المغرب الإسلامي، وأن الموريكيين يرجع أصولهم إلى المغرب الإسلامي، كما نجد إيبالثا في موقف آخر يذكر " أن عمليات التقتيل الجماعية التي تعرض لها الموريكيين على أيدي إخوانهم المسلمين، مما أدى إلى إبادة مجموعات كاملة منهم، وكان ذلك سبباً في تناقصهم، إضافة لسوء معاملة المسلمين لإخوانهم في الدين من الموريكيين المهاجرين إليهم"⁽²⁾، إن إصرار بعض المستشرقين على ذكر تلك المذابح والأحداث دون أدلة مع العلم أن أصحابها بعيدون عن مسرح الأحداث من ناحية، وتجاهلها لذكر ما تعرض له الموريكيين من عمليات السلب والنهب والقتل وهم في طريقهم إلى المغرب الإسلامي، من ناحية أخرى يدل على عدم الحيادية والهجوم الشرس على سكان المغرب الأقصى، والتأكيد على عدم تقبلهم للموريكيين، كما يمكن القول أن عملية اندماجهم مع مجتمع المغرب الأقصى اختلفت من فترة لأخرى وفق الظروف الراهنة لكل فترة، فمسألة رفض السكان للموريكيين لا يمكن نفيه كلياً، كذلك عمليات السلب والنهب قد تعرضوا لها في عدة مرات، ولكن ليس بالصورة التي صورتها المصادر الإستشراقية، فعملية الاندماج من عدمه في المجتمع مع الموريكيين، كان يتأثر بالوضع السياسي والاقتصادي المتزامن مع كل حركة هجرة، فنجد تعامل أهل المغرب مع الموريكيين الذين هاجروا بعد سقوط غرناطة (897هـ/1492م)، والذين كان لهم طابعهم الخاص سواء من الناحية الدينية أو الاجتماعية لكونهم فروا حفاظاً على ثقافتهم الإسلامية ودينهم، مما خلق اندماجاً مع أهل المغرب الأقصى، أما مهاجري سنه (1707هـ/1598م) مع بدايات عمليات النفي والتهجير فكانت ثقافتهم مزيجاً بين الثقافة الإسلامية والإسبانية النصرانية؛ نظراً لتقدم العهد على سقوط دولتهم الإسلامية⁽³⁾، في المقابل نجد ثقافة المهاجرين بعد قرار الطرد سنه (1017هـ/1609م) أقرب للنصارى في تعاملهم وثقافتهم، مما جعل سكان المغرب الأقصى لا يشعرون بالثقة اتجاههم، بل أطلقوا عليهم مصطلح (نصارى قشتالة) خاصة؛ بسبب تصرفات صدرت من بعضهم

(1) المرجع نفسه، ص32.

(2) إيبالثا، مرجع سابق، ص260-261.

(3) الموريكيون في المغرب، الندوة الثانية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، شفشاون، 2000م، ص86-87.

تظهر مشاعر الازدراء اتجاه السكان المحليين، لشعورهم بنوع من التفوق الحضاري واحتقارهم لأهل المغرب وتحسرهم على مجيئهم⁽¹⁾، كل ذلك جعل أهل المغرب يشككون في حقيقة إسلام هؤلاء، ويتضح ذلك من خلال ما حدث مع أفوقاي عند فراره من الأندلس ووصوله إلى المغرب الأقصى، فيروي ما حدث معه فيقول " عندما وصلنا إلى بوكالة في سوق قريب من ازموور، جاء المسلمون يسألون خادم قائد المدينة والذي كان يرافقني، هل أنا مسلم؟ فأجابهم: نعم، رغم هيأتي الإسبانية، فأحاطوا بي واخذوا يلحون عليّ بأن انطق الشهادتين، وفي النهاية فعلت، فقالوا: والله إنه ينطقها بطلاقة أحسن منا، ثم أتوا بالتمر وبعض المنتوجات التي تباع في السوق"⁽²⁾، مما تقدم يمكن القول أن موقف سكان المغرب من الموريسكيين وطرق تعاملهم معهم، ومدى تقبلهم والعمل على الاندماج والتمازج معهم كان رهينة لظروف مختلفة اختلفت باختلاف الوعاء الزمني لكل هجرة، فالموريسكيون بهجراتهم نحو المغرب الأقصى وظروف كل هجرة من حيث الأسباب والأبعاد كان لها تأثيرها في موقف سكان المغرب ناهيك عن أوضاع المغرب المتغيرة بين الحين والآخر.

أثر الهجرات الموريسكية على المغرب الأقصى:

تُشكل الهجرة بمفهومها في إيجاد نمطٍ جديدٍ عند حدوثها وخلق واقعٍ مختلفٍ عما كان قبلها على طرفي الهجرة الوافد وما يحمله من ثقافة اجتماعية ودينية وفكرية وخبرة في مجال الاقتصاد والسياسة ونحوها، في المقابل نجد سكان البلاد المهاجر إليها وهي المغرب الأقصى بكل ما حملوه من ثقافة وفكر وما يمارسونه من اقتصاد وسياسة في بلادهم طيلة قرون من الزمن، عملية التأثير والتأثر بين الوافد (المهاجر) والمحلي (السكان الأصليين) تمرُّ أحياناً بعقبات تتمثل في صراعات مختلفة، توضح مدى الامتزاج بينهما، هنا حملت هجرة الموريسكين مجموعة من التأثيرات المختلفة على بلاد المغرب الأقصى نوضحها كما يلي:

أولاً: التأثيرات الاجتماعية - تشمل التأثيرات الأندلسية عدة جوانب في الحياة الاجتماعية منها:

(1) اللباس: يمثل الزي أي اللباس رمزية للثقافة الدينية أو الاجتماعية، وسكان الأندلس الموريسكيين مُورست عليهم الضغوطات المانعة لهم من ارتداء اللباس الإسلامي من قبل السلطة الحاكمة، كما أشرنا سابقاً لكن ذلك لم يقف حائلاً أمام حفاظهم على بعض من ثقافتهم، فقد اشتهر الموريسكيين خاصتهم وعامتهم بالأناقة وارتداء الملابس الفاخرة والناعمة، من الحرير والصوف والثياب المطرزة، ومن الطبيعي أن ينقلوا معهم

(1) المرجع نفسه، ص 87.

(2) أفوقاي: هو أبو العباس أحمد بن قاسم ابن الشيخ الحجري الأندلسي، ولد سنة (977هـ/1570م)، لقبه المغاربة بالشهاب والإسبان بالخيرانتوا نسبة إلى قرية ببخار، كان يتقن اللغة العربية والقشتالية، من أبرز مؤلفاته: ناصر الدين على القوم الكافرين.

تأثيرهم إلى المغرب الأقصى وخاصةً فاس وتطوان والرباط وسلا⁽¹⁾، فقد اشتهرت نساء مدينة فاس بتشابه لباسهن بلباس الموريسكيات؛ لكونه واسع وفضفاض وطويل وعريض صيفاً، وعريض الأكمام يشبه ثياب الرجال شتاءً، إضافة لكثرة ارتداء الذهب لميسورات الحال⁽²⁾، وقد اشتهر المغرب الأقصى بأسماء الألبسة ذات الأصل الأندلسي، منها (الحائك) وهو لباس يرتديه الرجال والنساء، و(السبئية) وهو المنديل الذي تضعه المرأة فوق رأسها⁽³⁾، و(البدعية) نسبة إلى البدعة لأنها لم تكن موجودة في المغرب الأقصى وتعرف اليوم باسم العباءة المغربية، إضافة لارتداء اللباس الأبيض في الأفراح وأيام الحزن اقتداء بالعبادات الأندلسية⁽⁴⁾.

(2) الطبخ: يعد الطبخ ظاهرة اجتماعية ثقافية، وقد تفنن الموريسكيون في إعداد صنوف الطعام وطرق وأساليب الطبخ، والتي انتقلت بدورها إلى المغرب الأقصى، والجدير بالذكر أن المطبخ الأندلسي تنوع بفضل ما قدمه زرياب⁽⁵⁾ للأندلسيين، فقد علمهم طرائق الطعام الأكثر تعقيداً في المطبخ البغدادي وكيفية تقديمه بطريقة منظمة⁽⁶⁾.

لقد جلب الموريسكيون العديد من أنواع المأكولات والحلويات منها البسطيلة التي يتم إعدادها كثيراً، بل تعد من أهم الأطباق المغربية اليوم، وهي فطائر محشوة بلحم الحمام والعسل والبيض واللوز والزبيب، وأكلة الخليج التي تتكون من لحم الماعز أو الغنم ويحفظ لسنة أو سنتين، والإسفنج (سفنز) وهو من عجيب الدقيق المقلبي في الزيت، والزلابية وأدان القاضي وهي أنواع من الحلويات، وغيرها من المأكولات والعبادات في الطبخ أصبحت موروثاً ثقافياً في المغرب الأقصى، في دلالة على التمازج والاندماج الحضاري بين الثقافتين⁽⁷⁾.

(3) الأعياد والمناسبات الدينية والاجتماعية: هناك تشابه كبير بين الموريسكيين وسكان المغرب الأقصى في أعيادهم ومناسباتهم الدينية والاجتماعية وعاداتهم، كارتداء الملابس الجديدة والمجوهرات في أعراسهم،

(1) أبو الفضل: محمد أحمد، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، 1996م، ص 387-388.

(2) الوزان: الحسن، وصف أفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، تونس، ج1، 2007م، ص 197.

(3) الكامون، المرجع السابق، ص 149.

(4) قشتيلوا، محمد، محنة الموريسكيين في اسبانيا، مطابع الشيوخ، المغرب، 1999م، ص 56. الكامون، مرجع سابق، ص 154.

(5) زرياب: هو أبو الحسن علي بن نافع الموصلي، موسيقي ومطرب من بلاد الرافدين، عاصر الدولة العباسية، لقب بزرياب لعذوبة صوته وفصاحة لسانه ولون بشرته نسبة إلى طائر الشحرور الأسود اللون عذب الصوت، اشتغل زرياب بالموسيقى وتخصص في الدوق العام خاصةً في المطبخ، إليه ينسب ما يسمى اليوم بالإتيكيت، وكان له دور هام في نقل مظاهر الحضارة الإسلامية والشرقية إلى الأندلس للمزيد: دنون: عبدالواحد طه، دراسات أندلسية، دار النفائس، بيروت، ج1، 1999م، ص 43.

(6) حلاق: حسان، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الدار الوطنية للطباعة والنشر، 1986م، ص 48.

(7) السايح، مرجع سابق، ص 68. الكامون، مرجع سابق، ص 130-135.

وإعداد الموائد المختلفة لعدة أيام وليالي، كما كانوا مُولعين بالغناء وعزف الموسيقى وخاصةً ما عُرف بالموشحات، وإعداد المأكولات المتنوعة وتبادل الزيارات، وإحيائهم للمولد النبوي، ويوم عاشوراء الذي يحظى فيه الأطفال بالملابس الجديدة وتقديم الحلوى بهدف خلق طابع من البهجة خلافاً للعادات الشيعية التي جعلت من هذا اليوم يوم حزنٍ لمقتل الحسين⁽¹⁾، إضافة لمشاركة إخوانهم المسيحيين في أعيادهم، كعيد المسيح والنيروز، وغيرها من العادات التي عرّفها المجتمع المغربي من الهجرات الأندلسية.

(4) طقوس الجنائز: من مظاهر التأثير الأندلسي في طقوس الجنائز هو ارتداء النساء للثياب البيضاء الخشنة، وتلطّيح وجوههن بسواد دخان القدور الخاصة بالطبخ، ويجتمعن في دار الجنائز للبكاء والعيول على الميت⁽²⁾، كذلك تزين شواهد القبور بزخارف زهرية اللون وزيارة القبور كل جمعة وفي الأعياد⁽³⁾.

ثانياً: التأثيرات الثقافية: شملت عدة جوانب منها:

(أ) اللغة: يعتبر التأثير اللغوي من أبرز عمليات التواصل بين العنصر المغربي والأندلسي، فاللغة العربية هي التي كانت سائدة في الأندلس دون منازع، فابن الخطيب⁽⁴⁾ يقول في ذلك: " وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غرب كثير وتغلب عليهم الإمالة"، هذا النص فيه إشارة إلى سيادة اللغة العربية مع تأثير اللغات واللهجات الأخرى عليها، وهذا انعكاساً للعناصر البشرية المتنوعة التي قطنت الأندلس، مما يدل على تلاحم هذه العناصر وتمازجها، لكن بعد سقوط غرناطة سنة (897هـ / 1492م)، تغير الأمر لتصبح اللغة العربية في تراجع أمام اللغة الإسبانية، وخاصة بعد قيام السلطات هناك بمنع تداول اللغة العربية تماماً، وفرض تعلم اللغة القشتالية (الإسبانية)⁽⁵⁾، فكان لزاماً على المسلمين الأندلسيين استخدام الأخيرة، وهكذا امتزجت اللغة العربية مع الإسبانية لتظهر واضحة في لهجات الموريسكيين في مناطق المغرب الإسلامي المختلفة، ومن التأثيرات الأندلسية على المغرب الأقصى في اللغة هو استعمال نون المتكلم للمفرد والجمع بدل همزة المضارع مثل: نمشي = امشي / نخرج - نجلس، وإضافة الكاف مثل: كيكتب بدل يكتب⁽⁶⁾، من سماتها أيضاً التصغير، وهو موجود في اللهجات المغربية اليوم ومن نماذج ذلك خبيزة، كيككة، قديرة، والتصغير

(1) الكامون، مرجع سابق، ص 145. رزوق، مرجع سابق، ص 291.

(2) الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص 201-202.

(3) الكامون، مرجع سابق، ص 171.

(4) ابن الخطيب: لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج 1، (د.ت)، ص 134.

(5) الكامون، مرجع سابق، ص 114.

(6) الكامون، مرجع سابق، ص 117.

يستخدم لغرض التلميح أو التقييح، وهذا الأثر من اللغة الإسبانية التي فرضت على الموريسكيون، لذلك نجد أن الهجرات التي أعقبت قرار الطرد سنة (1017هـ/1609م)، وُجد أصحابها صعوبةً في الاندماج بسبب جهلهم باللغة العربية، مما جعل القائمون على أمور دينهم من الموريسكون يلجأون إلى تعليمهم الدين الإسلامي وشرحه باللغة الإسبانية (القشتالية)، ومن نماذج المصطلحات الإسبانية التي دخلت إلى العامية المغربية وما يقابلها باللغة العربية في مجالاتها متنوعة منها ما يلي: بلوزه = لباس / كبوط = معطف / كارو = عربية / الماريو = خزانة الملابس / صباط = حذاء / بطانية = غطاء من القطن / بوقه = نوع من السمك / بندير = دف / كارطة = ورق لعب / الروينه = تخريب / براكه = كوخ / صالة = قاعة فسيحة / فالصوا = باطل أو زور / فورمه = شكل / قرجوطة = حجرة / كاستا = صحيفة⁽¹⁾، وغيرها من المصطلحات التي استخدمت في مجالات مختلفة.

(ب) في مجال العلوم: كانت مساهمة الجالية الأندلسية في المغرب الأقصى بارزة في ميدان العلوم التجريبية والبحثية، وفي ميدان الترجمة، فقد حمل الموريسكيون معهم تلك العلوم وبرعوا فيها فقربهم الملوك السعديين، وشجعوهم خاصةً في مجالات الطب والهندسة والفلك وأغدقوا عليهم الصلات والمكافآت مما شجع الأطباء والكيميائيين (الصيدلة) على النشاط في صنع الأدوية وتأليف الكتب⁽²⁾، ومن هؤلاء الأطباء أبو القاسم الوزير بن محمد الغساني (ت-1099هـ/1601م)، والذي كان عميد الأطباء والصيدلة في عصره، ومن مؤلفاته (حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار)، والحاج عبد الوهاب محمد غريط الأندلسي، حيث كان الطبيب الخاص للسلطان السعدي مولاي إسماعيل بن الشريف⁽³⁾، كما عُرف عن الموريسكيين نوعين من الطب، الأول تجريبي علمي كما سبق ذكره، والآخر ممزوج بالسحر والشعوذة وهو الغالب في الأوساط الريفية، من خلال عمل التمام والقراءة على الماء وغيرها من الأساليب الأخرى⁽⁴⁾، من ذلك وصف أحدهم لطريقة العلاج التي اتبعتها قائلاً: "أنه عالج امرأة مملوكة لديهم في جسدها برص... فكتبت سورة من القرآن الكريم في إناء لم يدخلها طعام، ومَحَيَّتْ الحروف بماء نقي، وأعطيت الماء للمبروصة، فشربت منه، ووضعت على مواضع البرص... ومن ذلك اليوم بدأها الشفاء إلى ثمانية أشهر ولم يعد إليها

(1) رزوق، مرجع سابق، ص 282-290. الكامون، مرجع سابق، ص 118-125.

(2) حجي: محمد، الحركة الفكرية في عهد السعديين، دار المغرب، الرباط، 1978م، ص 67.

(3) رزوق، مرجع سابق، ص 274.

(4) رزوق، مرجع سابق، ص 275.

المرض⁽¹⁾، أما العلوم البحثية فبرع الموريسكيون في ميدان الهندسة والرياضيات والفلك والعلوم الإنسانية، من هؤلاء أحمد بن معيوب الأندلسي وشرحه لكتاب (شهور العرب) لابن البناء المراكشي، كما برعوا في الترجمة خاصة فيما يخص ترجمة المعاهدات والمراسلات، ونقل الكتب الإسبانية في الطب والصيدلة وغيرها من العلوم إلى العربية، على اعتبار ذلك جزء من جهادهم ضد الإسبان من خلال الاهتمام باللغة العربية، وجعلها الأولى بلا منازع، ومن أبرز هؤلاء أحمد بن قاسم الحجري الذي عرف بعميد المترجمين في عصره، ومن تراجمه كتاب (العز والمنافع للمجاهدين المدافع)، وترجمته فصول من الإنجيل والتوراة، وهناك المعلم يوسف الأندلسي وغيرهم الكثير⁽²⁾.

ج) الموسيقى: استطاعت الموسيقى الأندلسية أن تحتفظ إلى حد كبير بطابعها الأصلي في المغرب الأقصى، الذي كان لزياب دور في تطويرها وإليه ينسب زيادة الوتر الخامس للعود، وانتقلت تلك التأثيرات إلى المغرب الأقصى ويظهر ذلك جلياً في الموشحات الأندلسية المألوف، ونوبة غرناطة التي ابتسمت بالحزن وبروز أهم مدرستين موسيقيتين هما مدرسة غرناطة وإشبيلية⁽³⁾.

ثالثاً: التأثيرات الاقتصادية والمعمارية:

حمل الموريسكيون فنوناً عدة في مجالات مختلفة كالصناعة والزراعة والعمارة إلى المغرب الأقصى وطورها، ففي مجال الصناعة اختصت مدن المرية ومالقة ومرسية بالوُشِي المذهب، والحصر المزخرفة، وآلات الصفر والحديد، كما كان لهم طرق خاصة في دباغة الجلود وصناعة الحرير والصوف⁽⁴⁾، فيذكر الوزان⁽⁵⁾ "أن تجار الأقمشة الصوفية في فاس أغلبهم أندلسيون" كما برعوا في صناعة الثريات التي تزين القصور والمساجد، وإدخال الفسيفساء ونقش الحجر والجبس والخشب والفُسَقِيَّات المائتية داخل الدور وصناعة الأسلحة، وغيرها من الصناعات والأعمال المعمارية التي اشتهر بها المغرب الأقصى وكان نتاج الأثر الأندلسي واضحاً فيها⁽⁶⁾، كما ساهم الموريسكيون في تطوير بعض تقنيات الري من تركيب النواير ومد

(1) الحجري: شهاب الدين أحمد بن قاسم، ناصر الدين على القوم الكافرين، وضع حواشيه: أحمد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، ص142.

(2) الكامون، مرجع السابق، ص114. رزوق، مرجع سابق، ص275.

(3) الجراري: عباس، التأثير المورسكي في الطرب، ندوة لجنة التراث، المملكة المغربية، شفشاون، 2000م، ص207.

(4) رزوق، مرجع سابق، ص266.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص191.

(6) رزوق، مرجع سابق، ص267.

القنوات المائية، كما اهتموا بزراعة أنواع كثيرة من الأشجار كالزيتون والخضروات والفواكه، إضافة لتربيتهم لدودة القز، واهتمامهم بزراعة نباتات الزينة داخل بيوتهم⁽¹⁾.

رابعاً: التأثيرات السياسية والعسكرية:

1) سياسياً: كان للموريسكيون دور بارز في الميدان السياسي والدبلوماسي، ويرجع ذلك لتمرسهم بالمعاملات الدولية ومعرفتهم باللغات الأوروبية، ومن أشهر السفارات التي تمت في العهد السعودي هي سفارة أحمد بن قاسم الحجري سنة (1018هـ / 1610م)، أثناء عملية طرد الموريسكيين ونقلهم إلى المغرب الأقصى وتعرضهم للنهب والسلب من طرف البحارة الفرنسيين، فقدموا شكوى إلى السلطان زيدان الناصر السعودي بهذا الشأن، فعين الأخير وفد برئاسة الشهاب الحجري مصحوباً برسالة احتجاج للسلطات الفرنسية، وغيرها من السفارات التي تَبعتها منها سفارة الوزير محمد بن عبد الله الغساني الأندلسي سنة (1068هـ / 1690م)، والتي اهتم فيها بمعاينة بقايا الموريسكيين في الأندلس⁽²⁾.

2) عسكرياً: كما استطاع الموريسكيون تكوين قوة خاصة بهم من أجل الدفاع عن الشواطئ المغربية اتجاه الاعتداءات النصرانية، وخاصة بسهل تطوان وسلا والمعصورة، فأسندت مهمة الدفاع عن تلك الشواطئ إليهم، لينعكس ذلك على تأثيرهم في السياسة الداخلية وتوطيد الحكم السعودي وإسقاط حكم الدولة الوطّاسية سنة (961هـ / 1553م)، كما استحوذوا على مراكز مهمة في الجيش وبرز منهم قادة كأحمد وعلي العطار الأندلسي، وعلي العراص وإخوته، وغيرهم وبذلك أصبحوا درعاً واقياً ضد هجمات الإسبان⁽³⁾، كما حافظوا على استقلالهم عسكرياً، وتبعيتهم الشكلية للسلطة الحاكمة ظاهرياً.

(1) المرجع نفسه، ص 266.

(2) المرجع نفسه، ص 269.

(3) قشتيلوا، حياة الموريسكيون، مرجع سابق، ص 29، 30. رزوق، مرجع سابق، ص 158، 159.

الخاتمة:

- إن العلاقة بين المغرب والأندلس قديمة ترجع جذورها إلى الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس)، وهجرة المسلمون من عرب وأمازيغ وأجناس مختلفة من المغرب الإسلامي، وبالتالي توحدت الروابط الاجتماعية بين العدوتين، وهذا ما جعل من المغرب الإسلامي ملجأً ووطناً للمهاجرين الموريسكيين.
- كان وراء هجرة الموريسكيين عدة دوافع، منها ما هو سياسي وديني واقتصادي واجتماعي، وآخرها قرار الطرد النهائي الذي نقلها من هجرة إلى تهجير وإجلاء إجباري لهم سنة (1017هـ / 1609م).
- توافد أعداد كبيرة من المهاجرون الموريسكيون على المغرب الأقصى واستقروا في عدة مدن، أبرزها تطوان وشفشاون وطنجة وغيرها من المراكز الساحلية، وحملوا راية الجهاد ضد البرتغاليين والإسبان مما أعطى الصبغة الجهادية لموريسكي المغرب الأقصى.
- إن موقف سكان المغرب الأقصى من الموريسكيين وطرق تعاملهم معهم ومدى تقبلهم والعمل على الاندماج والتمازج فيما بينهم، كان رهينةً لظروف مختلفة اختلفت باختلاف الوعاء الزمني لكل هجرة، فالموريسكيين بهجرتهم نحو المغرب الأقصى وظروف كل هجرة من حيث الأسباب والأبعاد كان لها تأثيرها في موقف سكان المغرب، ناهيك عن أوضاع المغرب الأقصى المتغيرة بين الحين والآخر.
- كان للموريسكيين الأثر الواضح على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، فالهجرة الموريسكية كان لها الأثر الإيجابي على المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأقصى خاصة، فبقدمهم إلى المغرب الأقصى حاملين معهم معالم الحضارة والتراث الأندلسي، استطاعوا أن يربطوا الحضارتين وخلق تمازج بينهما كان نتاجه حضارة أندلسية مغربية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً- المصادر:

- 1- الحجري: شهاب الدين أحمد بن قاسم، ناصر الدين على القوم الكافرين، وضع حواشيه: أحمد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
- 2- ابن الخطيب: لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت).
- 3- المقرئ: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، القاهرة، 2008م.
- 4- الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت(د.ت).
- 5- مؤلف مجهول، أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1991م.
- 6- الوزان: الحسن، وصف أفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007م.
- 7- الونشريسي: أحمد، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، بيروت، 1981م.

ثانياً- المراجع:

- 1- إباضية: فاروق عثمان، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن 16م، دار المعارف، القاهرة، 1986م.
- 2- الجراري: عباس، التأثير المورسكي في الطرب، ندوة لجنة التراث، المملكة المغربية، شفشاون، 2000م.
- 3- الحجي: عبد الرحمن علي، محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، 1987م.
- 4- حجي: محمد، الحركة الفكرية في عهد السعديين، دار المغرب، الرباط، 1978م.
- 5- حلاق: حسان، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الدار الوطنية للطباعة والنشر، 1986م.
- 6- خطاب: محمد شيت، قادة فتح بلاد المغرب، دار الفكر، ط7، 1984م.

- 7- دنون: عبد الواحد طه، أهمية الكتب الفقهية في دراسة تاريخ الأندلس، أعمال الندوة الدولية حول حضارة الأندلس، الرباط، 1992م.
- 8- دراسات أندلسية، دار النفائس، بيروت، 1999م.
- 9- رزوق: محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط3، 1988م.
- 10- السايح: الحسن، الحضارة المغربية، عكاظ، الرباط، 2000م.
- 11- عباس: رضا هادي وآخرون، محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس، دار الحوراء، بغداد، 2014م.
- 12- عبد الكريم: جمال، الموريسكيون تاريخهم وآدابهم، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، (د.ت).
- 13- عنان: عبدالله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، القاهرة، ط3، 1966م.
- 14- الغنيمي: عبد الفتاح، موسوعة المغرب العربي، مكتبة مدبولي، 1994م.
- 15- أبو الفضل: محمد أحمد، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، 1996م.
- 16- قشتيلو: محمد، حياة الموريسكيون الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، منتديات أهل الحديث، تطوان، 2001م.
- 17- محنة الموريسكيين في إسبانيا، مطابع الشيوخ، المغرب، 1999م.
- 18- الكامون: مولاي أحمد، وآخرون، التأثير المورسكي في المغرب، المغرب، 2010م.
- 19- المسيري: عبدالوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، 1999م.
- 20- ايبالنا: ميكيل دي، الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال عبد الرحمن، القاهرة، 2005م.

ثالثاً- المقالات:

- 1- الموريسكيون في المغرب، الندوة الثانية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، شفشاون، 2000م.